# الدين والسياسة
# فى مصر المعاصرة

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk, com.

د. محمـــد عفيـــفى

# الدين والسياسة في مصر المعاصرة

"القمص سرجيوس"

دار الشروق

# مقدمة

لا أجد ما يمكن أن أصف به سعادتى عند الانتهاء من إعداد هذا الكتاب. لقد صاحبت سرجيوس أو صاحبنى هو لمدة تسع سنوات، هى عمر هذا البحث. ولا يعنى هذا أننى رأيته لمرة واحدة، إذ مات سرجيوس فى عام ١٩٦٤ وأنا ما أزال فى مرحلة الطفولة. لكن السنوات التسع «العجاف» كانت سنوات البحث عن سرجيوس. أخذتنى منه أحيانًا أعباء التدريس فى الجامعة، وهى «أعباء ثقيلة» تكاد تقتل روح الباحث فينا. وشغلنى عنه أحيانًا « أبحاث جامعية» ثقيلة الظل، ومغرقة فى الأكاديمية، لكنها ضرورية لما يطلقون عليها « الترقية». ولكنى أخيراً أشعر حقيقة بعودة الروح إلى الباحث مع الانتهاء من هذا الكتاب. وقد يحظى ما جاء فى الكتاب برضاء القارئ، ولماذا يرضى عنه؟ وقد لايحظى برضائه، ولما لا؟! المهم أن يثير الكتاب فى ذهن القارئ مجموعة الأسئلة التى حاولت أن أطرحها من خلال دراسة شخصية القمص سرجيوس.

ربما ألتمس العذر للقارئ إذا لم يعرف سريعًا من هو سرجيوس ؟ لقد طرحت هذا السؤال فى أثناء محاضراتى فى الجامعة على طلاب مرحلة الليسانس فى الدراسات التاريخية، وأيضًا على الفرقة الثانية فى كلية الإعلام، ولم أجد من إجابة. والأكثر من ذلك، أننى طرحت السؤال فى أثناء ندواتى فى الكنيسة القبطية على شباب الخدمة الكنسية، ومجموعة المشاركة الوطنية ولم تكن الإجابة بقدر ما انتظرت. وأحسست أن هناك شبه تعتيم مقصود أو غير مقصود على هذه الشخصية «رمز الوحدة الوطنية». وما أحوجنا الآن لهذه الوحدة وهذه الشخصية وهذه الدراسة.

وبالنسبة لى تعرفت على شخصية سرجيوس لأول مرة من خلال فيلم

«بين القصرين» حيث يعرض المخرج فى نهاية الفيلم بعض المشاهد عن ثورة ١٩١٩ ومن هذه المشاهد، يسترعى الانتباه هذا القس الذى يعتلى منبر المسجد خطيبا للوطنية، ورمزا للوحدة الوطنية فى لحظة نادرة ومضيئة فى سجل أيامنا المصرية.

وربما يتساءل البعض: وما الذى يشد طفلا صغيرا فى هذا المشهد. والإجابة ذات شجون. كانت نشأتى فى حى شبرا وهو حى المهاجرين من المسلمين والأقباط إلى القاهرة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى النصف الثانى من القرن العشرين، من هنا اكتسب الحى طابعا خاصا فيما يتعلق بمسألة الوحدة الوطنية. ربما لا يدرك طبيعة ذلك إلا أهل شبرا أنفسهم. لن أتكلم عن ذكرياتى فى شبرا، فسيأتى ذلك فى حينه، ومن ناحية أخرى شاهدت فى بداية السبعينيات ظاهرة بدت وكأنها فريدة إذا رشح القمص بولس باسيلى نفسه عن دائرة شبرا ونجح فى الانتخابات، كما أعاد ترشيحه فى الانتخابات التالية ولكنه لم ينجح. وأتذكر مقولة البعض إن القمص بولس كان يسير على درب القمص سرجيوس الذى رشح نفسه من قبل عن دائرة شبرا فى عام ١٩٤٩. والغريب أن هذه السنوات أواخر الأربعينيات، وبداية السبعينيات كانت سنوات « فتن طائفية » على أية حال، هكذا تعود إلى مخيلتى من جديد صورة القمص سرجيوس.

وكبرت، وعندما بدأت اختيار موضوع الدكتوراه فى التاريخ، وجدتنى أدرس تاريخ الأقباط الحديث، ولم يكن هذا غريبا فى بابه، فكما قلت نشأت فى هذا الحى الذى لم تستنكف أمى أن تذهب بى عند مرضى وأنا صغير إلى كنيسة « سانت تريزا» لنضىء شمعة شفاعة فى الشفاء. وهذا المدرس المسيحى فى مدرسة شبرا الإعدادية الذى كان يخاطب غيره عند بدء الحديث بقوله « صلى على النبى» من باب التودد فى الحديث. ولا أزال أذكر عمى فرنك جرجس زميل والدى وجارنا فى شبرا - والذى أهدى لذكراه هذا الكتاب - حيث كان يتبادل مع أبى الزيارة والهدايا فى الأعياد. حتى عندما اشتد بهما المرض بعد سن المعاش، كان هذا الأمر تقليداً لابد منه. كما أذكر لعمى فرنك وأخيه فؤاد مساعدتهما لى فى أثناء إعداد الدكتوراه، فبفضلهما تعرفت على الأنبا بسنتى سكرتير البابا آنذاك، لأقابل البابا؛ لأحصل على تصريح بالاطلاع على الوثائق والمخطوطات القبطية، وهو الأمر الذى تشكك بعض الزملاء فى الجامعة فى حصولى عليه.

إنه هذا الحى العجيب الذى تأثرت بتقاليده وأساطيره أشد التأثر .

وعندما بدأت التخصص فى تاريخ الأقباط الحديث والمعاصر ، بدأت أيضا فى التعرف على شخصية القمص سرجيوس عن قرب . ووجدت ذكراه حية فى قلوب الكثيرين من أهالى شبرا والقللى . عندما تحدثت إلى المرحوم الدكتور سليمان نسيم ، سكب فيض ذكرياته مع سرجيوس ، فضلا عن بعض المادة التاريخية المكتوبة عنه . وحتى عندما تحدثت مع بعض العلمانيين مثل الدكتور مجدى يوسف روى لى ذكريات شبابه مع سرجيوس وخطبه فى كنيسة القللى ، وصرح لى بأن المفكر اليسارى الكبير غالى شكرى كان فى بداية حياته من تلاميذ سرجيوس وكان يقوم بتوزيع جريدته « المنارة المصرية » على المشتركين . كما يحاول القس المعارض إبراهيم عبد السيد تقمص شخصية سرجيوس ، ولكن شتان ما بين الشخصيتين ، فضلا عن تغير ظروف الزمان والمكان . وأفرد القمص بولس باسيلى ـ السابق الحديث عنه ـ فصلا فى مذكراته عن سرجيوس . وحتى من خارج شبرا مايزال سرجيوس يشغل ركنا فى ذاكرة الكبار .

أتذكر كيف لمعت عين الأنبا « المثقف » موسى عندما ذكرته بسرجيوس وكيف أعجب بنضاله الوطنى والإصلاحى فى شبابه ، ولكنه أخذ عليه بعض الشطحات فيما يتعلق بالعلاقة مع الكنيسة . ويعجب إبراهيم هلال زعيم جماعة الأمة القبطية ـ الشهيرة فى عام ١٩٥٤ ـ أشد الإعجاب بسرجيوس ، ويعلن تأثره به . حتى أن هلال هو الذى كتب المادة الخاصة بسرجيوس فى دائرة المعارف القبطية . وعندما مات سرجيوس فى عام ١٩٦٤ نعاه لطفى الخولى على صفحات الأهرام خطيبا لثورة ١٩١٩ .

ثرية هى حقًا سيرة حياة القمص سرجيوس ، عندما تقلب صفحاتها ستجد مواقف ومعارك مع البابوات الأقباط من كيرلس الخامس حتى كيرلس السادس ، ومع الزعامات والشخصيات التاريخية من سعد زغلول إلى النحاس ، حسن البنا ، النقراشى ، مكرم عبيد ، الملك فاروق ، محمد نجيب ، عبد الناصر . إنها سيرة تحطم الحائط الوهمى بين الدين والسياسة فى تاريخ مصر المعاصر .

* * *

## الفصـل الأول

# الدور الوطنى للقمص سرجيوس

### مقـدمة فـى المنهج

إن أول تساؤل يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذا الكتاب هو : لماذا دراسة القمص سرجيوس ؟ والإجابة السريعة لمثل هذا التساؤل قد تكون فى أهمية الدور الذى لعبه سرجيـوس فى ثورة ١٩١٩ ؛ حتى لقبه البعض « بخطيب الثورة». ومع اعـترافنا بأهمية قيـمة الإجابة السابقة ، فإنها فى الحقيقة لم تكن الدافع الرئيسى ، أو على الأقل الوحيد عند التعرض بالدراسة لسيرة القمص سرجيوس ، فواقع الأمر يبرز لنا عديداً من الدوافع وراء دراسة القمص سرجيوس ، هذه الدوافع لها علاقة وثيقة بتطور مناهج البحث التاريخى فى الفترة القصيرة السابقة .

فـمنذ فـترة طويلة عـرفت الدراسـات التـاريخيـة المصـرية دراسـة « السيـرة» أو «الترجـمة» لـلشـخصية التاريخيـة ، وشهـدنا العديد من الدراسـات المهـمة فى هذا المجال ، وكان ذلك انعكاساً لمسألة منهجية عريقة فى مجال البحث التاريخى العام ، وهى دور « البطل» فى صناعة التاريخ . ولقد شهـدت هذه المسألة جدلا عنيفًا بين مؤيـد ومعارض ، وصل أحيانًا إلى حد التطرف فى الأحكام ، إما بتعظيم دور الفرد فى التاريخ ، أو بإهماله كلية ، تحت دعوى أن البطل ما هو إلا إفراز من الجماهير .

ومع تطور دراسة التاريخ الاجتماعى فى العقود الأخيرة ، ظهر اتجاه جديد فى مجال الدراسات الخاصة بالسيرة التاريخية « الترجمة» ، يولى اهتمامًا كبيراً بدراسة الشخصيات التاريخية « الثانوية» التى ظلت لفترة طويلة مهضومة الجانب من حيث الدراسة التـاريخية ، على الرغم مـن أنهـا أكثر التصـاقًا بالجماهير من « البطل» أو

«الزعيم» ، وهى فى الوقت نفسه تفهم الجماهير جيداً ، وتجيد التعامل معها وتحريكها ، لكن للأسف فإن الدراسات التاريخية لم تضع هذه الشخصيات فى مجال الضوء ، حتى نستطيع فهم العملية التاريخية من منظور جديد لا يعتمد على التركيز على « الزعيم» فقط ، أو «الجماهير» فقط ، وإنما يهتم أيضًا بدراسة أهمية الشخصيات « الثانوية» فى صناعة التاريخ ، من أجل اكتمال النظرة « الشاملة» للحدث التاريخى .

وتحاول دراستنا هذه التعرض لنقطة مهمة فى مجال التحليل التاريخى ، وهى : ما هو الهامش الذى نعطيه لـ « المناخ التاريخى» وأثره فى العملية التاريخية وإبراز شخصيات تاريخية معينة ؟ وأيضًا ما هو الهامش الذى نعطيه لدور « الشخصية» فى صناعة التاريخ ، والقدرات الخاصة لـ «الشخصية» على تفهم المناخ التاريخى والتعامل معه ؟ والأكثر أهمية فى رأينا هو كيفية استثمار « الشخصية التاريخية» للحظة المشاركة فى « الحدث التاريخى» ، لتكون نقطة انطلاق لبناء « رمز تاريخى» لأمة أو لشعب ما . وهو ما تحقق بشكل كبير فى شخص القمص سرجيوس .

وننتقل الآن من التعميمات التاريخية إلى بعض المشاكل المنهجية الخاصة بالتاريخ المصرى المعاصر ، والتى تتصل بشكل ما بدراسة الدور الذى لعبه القمص سرجيوس . ولعل من أهم هذه المشاكل دراسة دور « رجل الدين» فى السياسة المصرية . والأمثلة الحقيقية التى تتوافر لدينا فى هذا الشأن نادرة إلى حد ما ، وكلها تقريبًا تتعلق بالجانب الإسلامى ، لظروف تتعلق بعلاقة الدين والسياسة فى الإسلام ، ليس هنا مجال الحديث عنها . . لكن هذه المسألة تصبح فى غاية التعقيد والحساسية عند دراستها على الجانب القبطى ، وربما ينبع ذلك من اختلاف طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة فى المسيحية عنها فى الإسلام ، برغم بعض الاجتهادات الجريئة فى هذا الشأن ، فيفسر البعض مقولة « ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله» أن مصدر القوة عند قيصر « المال ، وسياسة الدهاء ، والقدرة على البطش . ومصدر القوة عند الله : الروح القدس ، وقدرة الشهادة للحق ، والاستعداد للموت» . وعلى ذلك . . فإن تورط الكنيسة أو رجل الدين فى السياسة يخرج الكنيسة عن هدفها الأسمى الدينى ، ويخرجها من « السلطان الروحى» إلى

«السلطان الزمنى» فإذا تكلم رجل الدين بأمر الكنيسة ـ وكما « تمليه عليه فى الأمور الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية التى هى أصلا ليست من اختصاص الكنيسة ـ صار هو والكنيسة مسئولين أمام الدولة . لذلك يلزم الكنيسة ألاّ تأمر رجل الدين أن يتكلم إلا فيما يختص بالشئون الكنسية ، و فى دائرة اختصاص المسيحية ، حتى لا تقف الكنيسة مسئولة أمام السلطان الزمنى ، لأنها لا تسأل قط إلا أمام المسيح روحيًا»(١) .

وهناك اجتهادات أخرى قد تبدو معاصرة جدًا ، ولكننا قد ندرك أهميتها فى تاريخ الفكر القبطى إذا أدركنا أنها صادرة عن البابا شنودة الثالث ، الذى يرى أن «الكلام فى السياسة ليس حرامًا ، ولكن الكلام شىء ، والعمل السياسى شىء آخر ، كذلك فالعمل السياسى شىء والعمل الوطنى شىء آخر»(٢) .

على أية حال ، فإن كافة الاجتهادات المسيحية فى علاقة الدين بالسياسة تحترم العمل الوطنى وتقدسه ، فحتى الأطروحات التقليدية ترى أن الوطن السمائى لا يلغى وجود الأوطان ، فالمسيح نفسه قيل عنه «وخرج من هناك وجاء إلى وطنه وتبعه تلاميذه» (٣) .

وبرغم أهمية الاجتهادات السابقة فى تاريخ الفكر القبطى والمجتمع ، فإن القمص سرجيوس ـ كما سنرى ـ يقدم لنا نموذجًا مغايرًا ، أكثر حيوية ولكنه أكثر راديكالية أيضًا .

ومن ناحية أخرى يقدم لنا نموذج القمص سرجيوس إشكالية مهمة فى دراسة التاريخ السياسى لمصر المعاصرة ، إذ إنه من الصعب دراسة الدور السياسى لشخصية تاريخية ليس لها انتماء حزبى فى أثناء الفترة الليبرالية التى عاشتها مصر بين عامى ١٩٢٣ـ١٩٥٢ . أضف إلى ذلك أنها شخصية تنتمى إلى الأقلية الدينية التى تتهم دائمًا بالسلبية السياسية حتى فى العصر الليبرالى ، وبصفة خاصة فى أواخره . كذلك يحيط بمحاولة دراسة وتتبع الدور السياسى للقمص سرجيوس فى العهد

---

(١) الأب متى المسكين : مقالات بين السياسة والدين ، دير الأنبا مقار ، ١٩٨٠ ، ص ٣٣ .
(٢) غالى شكرى ، الأقباط فى وطن متغير ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٠٥ .
(٣) الأب متى المسكين : المرجع السابق ، ص٢٩ .

الثورى - بعد عام ١٩٥٢ - عديد من المحاذير، أهمها ندرة الوثائق والمصادر الموثوق بها. ومن هنا كان الاعتماد على المصادر الشفوية التى يشوبها الكثير من الغموض، فضلا عن « تأميم» نظام يوليو للحياة السياسية.

وهناك مشكلة أخرى تتعلق بدراسة دور القمص سرجيوس، وهو الاتهام الذى وجهه البعض إلى سرجيوس بالعمل « الطائفى» فى فترة تالية على ثورة ١٩١٩. من هنا كانت الصعوبة فى التمييز بين « الوطنى» و «الطائفى». وهذه المصطلحات قد تبدو شديدة الوضوح عند البعض فى حين الحقيقة غير ذلك، فكما سنرى تبادلت كافة التيارات والشخصيات السياسية الاتهام بالطائفية، حتى تميع ما هو «وطنى» وما هو « طائفى».

وأخيراً تحاول دراستنا معالجة « الرمز» التاريخى بين الواقع والأسطورة، والحضور التاريخى لـ « الرمز» على الواقع المعاصر. وهو المثال الذى نراه الآن فى «استحضار» صورة سرجيوس فى العقل الجمعى المصرى كلما وقعت أحداث « فتنة طائفية» فى العقدين الأخيرين.

**سرجيوس، النشأة وسنوات التكوين**

إن من يتتبع نشأة سرجيوس وسنوات تكوينه سيواجه ببعض الحقائق والصعوبات التى كثيراً ما تحد من رغبة الباحث النازعة إلى التحليل، أكثر من مجرد سرد الوقائع، فنادراً ما تتوافر لدى المؤرخ معلومات مهمة ووافية حول الفترة الأولى للشخصية التاريخية، فى حين تتراكم المعلومات بدءاً من الفترة التى يلمع فيها نجمه ويتحول إلى « شخصية تاريخية» ولا يهتم أحد بتسجيل الفترة السابقة.

وعلى ذلك فليس لدينا معلومات مهمة عن نشأة سرجيوس [1]، سوى أنه قد ولد فى جرجا فى الصعيد فى عام ١٨٨٣. وأما عن الأصول الاجتماعية لسرجيوس فهو ينتمى إلى أسرة توارثت سلك الكهنوت، فكان أبوه قسيساً، وكذلك جده، من هنا كان طبيعياً - كما يروى سرجيوس نفسه - أن يكون كاهنًا، وأن يتمرس على الخطابة والوعظ، ولا تتوافر لدينا أية معلومات عن سرجيوس من

(١) الاسم الأصلى للقمص سرجيوس هو: « ملطى سرجيوس عبدالملاك».

عام ١٨٨٣ حتى عام ١٨٩٩ عندما يحدث التحول الكبير فى حياته برحيله إلى القاهرة للالتحاق بالمدرسة الأكليركية .

هكذا تبدو نشأة سرجيوس نشأة عادية لا تختلف عن كثير من أقرانه آنذاك ، غير أننا لابد أن نرى جيداً هذه النشأة فى إطار ظروف العصر ، فأولا كما نرى ولد سرجيوس عقب الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ . من هنا ، فقد شارك معاناة هذا الجيل الذى عاش تحت وطأة الاحتلال ، ثم شاهد بدايات الحركة الوطنية ضد الاحتلال وقمعها قبل الحرب العالمية الأولى . كما أحس هذا الجيل جيداً بمعاناة مصر فى أثناء هذه الحرب ، وبالتالى لم يكن غريبًا أن يقود هذا الجيل ثورة ١٩١٩ حين كان سعد زغلول منفيًا خارج البلاد ، ففى عام ١٩١٩ كان سرجيوس يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا . إنها ذروة الشباب والتوهج الوطنى ، وهى تقريبًا نفس المرحلة العمرية للجيل الثانى من الوفد الذى قاد التحرك الشعبى والعمل السرى للثورة .

وعلى المستوى القبطى ، كانت الحياة القبطية تدخل منعطفًا جديداً ، نتيجة جهود البابا كيرلس الرابع «أبو الإصلاح» (١) ، فضلا عن تحديات التبشير الكاثوليكى والبروتستانتى ، ولقد تأثر القمص سرجيوس بهذه الأجواء ، فقبل ذلك كانت ثقافة الكاهن القبطى متواضعة للغاية ، وكان من يتولى الوعظ هم بعض الكهنة الذين يجمعون بين الوعظ وأعمال حرفية وزراعية أخرى ، ليتقوتوا منها . ولم يكن هذا الوضع يتناسب مع الثقافة الراقية وفن الوعظ الذى يتمتع به المبشرون الأجانب ، من هنا كان إنشاء المدرسة القبطية الإكليركية (٢) يعد تطوراً كبيراً فى الحياة القبطية .

وإذا انتقلنا من دراسة المناخ العام إلى دراسة طبيعة شخصية سرجيوس الخاصة ، وأثرها فى تطور حياته ، فإننا سنجد تميزًا خاصًا لسرجيوس فى هذا

---

(١) عن جهود البابا كيرلس الرابع ، وبصفة خاصة فى الجانب التعليمى انظر : سليمان نسيم : الأقباط والتعليم فى مصر الحديثة ، منشورات أسقفية الدراسات العليا والبحث العلمى ، القاهرة د . ت ص٦٨ـ ٧٠ .

(٢) حبيب جرجس : الإكليركية بين الماضى والحاضر ، القاهرة ١٩٣٨ .

الاتجاه، فقد وصفه البعض على سبيل المدح بأنه « نادر، ثائر، شاذ، لا يسير كما يسير الناس، شَبَّهَهُ بالبركان إن شئت، لكنه بركان متفجر، أو شبهه بالمحيط إن شئت، لكنه ليس بالمحيط الهادى. . . إنما هو شعلة متقدة من النور، وجذوة لا تخمد من النار»(١).

والحق أن روح التمرد قد ظهرت مبكرًا لدى سرجيوس، وهو معلم بالمدرسة الأكليركية، فقد قاد سرجيوس فى عام ١٩٠٢ تمردًا لطلاب الأكليركية من أجل إصلاح شئونها، وأحوال الطلاب بها، وبطبيعة الحال فإن أى تمرد يواجه بحدَّة وقمع، فما بالنا إذا كان التمرد داخل مؤسسة دينية؟! من هنا قامت البطريركية بمحاولة قمع هذا التمرد بالتهديد باستدعاء البوليس لإنهاء اعتصام الطلاب بالأكليركية، فلجأ الطلاب إلى أهم شخصية قبطية علمانية آنذاك بطرس باشا غالى، الذى تدخل لإنهاء هذا الخلاف(٢).

ولا يهمنا هنا ـ ونحن بصدد دراسة الدور الوطنى لسرجيوس ـ التعرض بالدراسة لمسألة الإصلاح القبطى التى سيكون لها موضع آخر، إنما يعنينا هنا بيان مدى الطبيعة الخاصة التى تمتع بها سرجيوس مبكرًا من قدرة على التمرد والرغبة فى الإصلاح. ومن هنا يمكننا إذا جمعنا بين المناخ العام من ناحية، والطبيعة الخاصة لسرجيوس من ناحية أخرى أن نفهم : لماذا بزغ نجم سرجيوس بعد ذلك ؟

بعد تخرج سرجيوس من المدرسة الأكليركية، تزوج (٣) فى عام ١٩٠٤ لكى تتم

---

(١) المنارة المصرية ( مجلة ) ١٤/٩/١٩٤٩.

(٢) للتعرف على نشأة سرجيوس وسنوات تكوينه انظر : المصور(مجلة) ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ حديث خاص مع القمص سرجيوس.

ـ وخليل نسيم خليل : القمص سرجيوس، القاهرة ١٩٦٥ . وذكر لنا الدكتور هلال زعيم جماعة الأمة القبطية أنه هو المؤلف الحقيقى للكتاب، وليس خليل نسيم، الذى لم يكن سوى مصور فوتوغرافى، وأنه قد وضع اسم خليل نسيم لكى يتهرب من الحظر المفروض عليه من جانب الدولة منذ حادث الأمة القبطية وإعفاء البابا يوساب فى عام ١٩٥٤، لقاء معه فى مكتبه بالقاهرة ديسمبر ـ ١٩٩٥ ـ إبريل ١٩٩٦ .

ـ وأيضًا القمص بولس باسيلى : ذكريات فى نصف قرن، القاهرة ١٩٩١، ص ١٤١، ١٥٥، وكان على صلة وثيقة بسرجيوس منذ الأربعينيات .

(٣) كان لسرجيوس خمسة أبناء وخمس بنات، وطنى ( جريدة) ٦/٩/ ١٩٦٤.

رسامته قسًا . وقام سرجيوس بالخدمة فى كل من الزقازيق ، وسنورس ، وملوى ، إلى أن تم ترقيته إلى درجة « القمص » (١) فى عام ١٩٠٧ ، وفى عام ١٩١٢ انتقل سرجيوس للعمل بالسودان وكيلا للمطرانية القبطية هناك .

وفى السودان بدأ الدور الوطنى الحقيقى لسرجيوس ، فقد وصل إلى هناك فى أعقاب عديد من الأحداث الطائفية التى شهدتها مصر آنذاك فى أعقاب مصرع بطرس غالى فى عام ١٩١٠ ، وانعقاد المؤتمرات الطائفية فى عام ١٩١١ ، وانتقل هذا التوتر إلى صفوف المصريين المقيمين فى السودان ، ووفقًا لرواية سرجيوس : انقسم أعضاء النادى المصرى الذى كان يرمز إلى وحدة المصريين فى السودان ، وخرج منه معظم أعضائه من الأقباط وشكلوا ناديًا آخر أطلقوا عليه اسم « المكتبة القبطية » كتأكيد على انفصام عرى عنصرى الأمة ، وتمايز كل واحد عن الآخر .

ودعا أعضاء المكتبة القبطية القمص سرجيوس لإلقاء محاضرة دينية بها ، إلا أن سرجيوس عندما شاهد بين الحاضرين بعض المسلمين عمد إلى تغيير موضوع المحاضرة وجعل عنوان محاضرته عيشوا بسلام ، داعيًا إلى التآخى والمحبة بين الأقباط والمسلمين . كما يذكر سرجيوس أنه قد لعب مع بعض العلماء المصريين المسلمين فى السودان دورًا فى عودة الوئام والتآخى بين الأقباط والمسلمين فى السودان ، حتى عبروا أزمة اغتيال بطرس غالى .

ولم يقتصر الدور الوطنى لسرجيوس فى السودان على هذا الحادث العارض ، وإنما أصدر هناك مجلته « المنارة المرقسية » التى بث من خلالها آراءه وأفكاره . ويبدو أن نشاط سرجيوس قد أزعج السلطات البريطانية فى السودان ، وبصفة خاصة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، حيث أمرت السلطات البريطانية سرجيوس بالرحيل عن السودان ، التى غادرها فى ١٦ مايو ١٩١٥ . وعاد سرجيوس إلى بلدته جرجا حيث ظل بلا عمل ولا راتب باستثناء بعض المساعدات التى كان يرسلها إليه أقباط السودان (٢) .

---

(١) القمص أو الإيغومانس درجة أعلى من القس . عن ذلك انظر : ابن كبر : مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة جـ١ مكتبة الكاروز ، القاهرة ص ٤٣٥ .

(٢) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ . وأيضًا خليل نسيم : المرجع السابق ص ١٠ .

**الصعود إلى القمة « منبر الأزهر» ١٩١٩**

وبمجيء عام ١٩١٩ يبدأ نجم سرجيوس الوطني في اللمعان ، نظراً لطبيعة الدور الذي لعبه في هذه الثورة ، فهو كرجل دين قبطي ، اعتبر بمشاركته في الثورة رمزاً للوحدة الوطنية في مصر . وكان على وعى تام لطبيعة الدور التاريخي الذي يلعبه في هذه الفترة ، حيث أدرك مبكراً أن اشتراكه ككاهن مع شيوخ الأزهر في العمل الوطني يُعَدُّ دليلا على « وحدة المصريين وبراءة ثورتهم من تهمة الرجعية والتعصب» . كما كان على وعى بأهمية الدور الذي يؤديه الأقباط في هذه الثورة لتأكيد وحدة عنصرى الأمة واستجابة لـ « نداء الوطن » (١) .

ومن الصعب الحديث عن دور سرجيوس في ثورة ١٩١٩ دون الحديث عن الثورة ذاتها (٢) ، ولكن ذلك سيخرجنا عن موضوعنا الأساسي ، وهو تتبع دور سرجيوس ، وبلوغه القمة في خضم الثورة ، من هنا ندخل إلى المعادلة الصعبة في العملية التاريخية ، وهي كيفية تناول دور الفرد في صناعة التاريخ ، وفي الوقت نفسه نجد أن الانغماس في تتبع دور سرجيوس سيخرج لنا صورة مبالغ فيها ، وكأن سرجيوس هو الظاهرة الأساسية في هذه الثورة ، أضف إلى ذلك ضرورة تناول دور سرجيوس في إطار دور الأقباط بصفة عامة في الثورة . إن هذا الرأى قد يبدو منطقياً للوهلة الأولى ، لكنه في الحقيقة يخفى في داخله بعض التناقضات الأساسية ، فكما تبين لنا من تطور الأحداث ، لابد لنا أن نفرق بين أدوار « رجال السياسة» من الأقباط ، وشخصيات ثانوية مثل سرجيوس والقمص بولس غبريال ، ورجال الشارع القبطي . وهو ما سنحاول التركيز عليه هنا ، أكثر من دراسة الثورة ذاتها ، أو حتى فكرة الوحدة الوطنية .

---

(١) المذكرات الخطية للقمص سرجيوس ص ١٠ . وأيضاً المنارة ١١/ ٢/ ١٩٣٨ .

(٢) عن ثورة ١٩١٩ بصفة عامة مع ذكر تفاصيل هذه الثورة ، انظر : عبدالرحمن الرافعي : ثورة ١٩١٩ ، و ٢جـ ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٥ ، وأيضاً عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨-١٩٣٦ ، وعن دور الأقباط في الثورة انظر الدراسة المهمة : طارق البشرى : المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وبصفة خاصة الفصل الخاص بثورة ١٩١٩ ص ١٣٣-١٦٣ وأيضاً دراسة :

CARTER, B.L, THE COPTES IN EGYPTIAN POLITICS, CROOM HELN, LONDON- 1986, P 58-71.

فعلى الرغم من وعى سرجيوس بالدور التاريخى الذى يلعبه فى ثورة ١٩١٩، فإنه يبدو أن انخراط سرجيوس فى الثورة قد جاء بعفوية وتلقائية إلى حد كبير، ويأتى ذلك على العكس من موقف «زعماء» الأقباط، الذين لم ينخرطوا فى الثورة إلا بعد عديد من الترتيبات، فقد هالهم فى بداية الأمر أن يتكون الوفد(١) - بزعامة سعد زغلول - دون أن يتضمن فى عضويته شخصية قبطية. من هنا عقد زعماء الأقباط اجتماعًا لهم فى نادى رمسيس القبطى للتشاور فى الأمر، وانتهى رأيهم إلى ضرورة إرسال وفد منهم لمقابلة سعد زغلول وسؤاله عن وضع الأقباط فى الوفد ودورهم فى الحركة الوطنية، ثم مصيرهم بعد ذلك، مقارنة بالمسلمين. وكان رد زغلول بضم بعض كبار الشخصيات القبطية إلى عضويته مع إصداره لتصريحه الشهير عن وضع الأقباط بعد الاستقلال «بعد الاستقلال يكون شأنهم شأننا، لا فرق بين أحد منا إلا فى الكفاءة الشخصية»، وتم إثبات ذلك ضمن محاضر الوفد(٢).

وعلى العكس من هذه الحركة المنظمة - من ساسة محترفين - ذات الأهداف المزدوجة الوطنية والقبطية، جاء انخراط سرجيوس فى أحداث الثورة بصفة تلقائية وعفوية، إذ يروى سرجيوس قصة انخراطه فى الثورة قائلا: «ظلت حياتى موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة وحتى أحد أيام سنة ١٩١٩، وكنت قابعًا فى بيتى عندما سمعت ضجيجًا وصخبًا فى الشارع، ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف (يحيا سعد، يحيا الاستقلال)، ولما سألت عن السبب قيل لى: إن المستعمرين قد اعتقلوا سعدًا الذى يطالب بالاستقلال التام، وهنا تدفقت الدماء الحارة إلى رأسى، وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت فى نفسى، فأسرعت إلى الشارع وانضممتُ للمتظاهرين، وسرنا نهتف ونصيح»(٣).

ويهمنا هنا تحليل النص السابق، لكى نرى طبيعة الدور الذى لعبه سرجيوس.

(١) سميرة بحر: الأقباط فى الحياة السياسية المصرية، ط٢، القاهرة ١٩٨٤، ص ٧٤، ٧٥ وأيضًا مصطفى الفقى: الأقباط فى السياسة المصرية، مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية، ط٢، القاهرة ١٩٨٨، ص ٦٠، ٦١.

(٢) طارق البشرى، المرجع السابق ص ١٤٨.

(٣) المصور ١٦/ ٤/ ١٩٥٤ حديث خاص مع القمص سرجيوس.

وقد يبدو موقف سرجيوس هنا عفويًا وتلقائيًا وحماسيًا إلى حد ما، ولكنه لا يمكن أن يقضى بنا إلى القول باندفاع سرجيوس وعاطفيته، ففى الحقيقة من يدرك طبيعة شخصية سرجيوس، يعلم أن هذا الموقف يتفق تمامًا مع طبيعة سرجيوس: «شعلة متقدة من النور، وجذوتها لا تخمد من النار»(١).

من هنا كانت بداية تحرك سرجيوس فى أحداث ثورة ١٩١٩ بداية طبيعية مثل اشتراك الآلاف من عامة المصريين، تحركهم عواطفهم الوطنية وحالة السخط على الاحتلال البريطانى، ولا يمكن أن ننكر حالة الهياج التى انتشرت فى جموع المصريين بعد اعتقال سعد الذى تحول إلى «رمز» الأمة فى جهادها الوطنى.

هكذا تحركت روح سرجيوس الثائرة لتجد نفسها فى خضم أتُون الثورة، ولم يتحرك سرجيوس هنا كأحد الساسة الزعماء «الأقباط» وإنما مثل شباب جيله الذى آمن بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، بضرورة تنظيم العلاقة بين مصر وبريطانيا وصولا إلى الاستقلال، من هنا إذا وصفنا خروج آلاف الشباب من المصريين بعد اعتقال سعد - فى مظاهرات عارمة بـ«التلقائية» فإن هذه التلقائية ليست منقطعة الصلة بنمو الشعور الوطنى، وظهوره فى مسألة جمع التوكيلات الشعبية - قبل اعتقال سعد - للوفد لمفاوضة بريطانيا. من هنا.. فالتلقائية فى «الخروج» والتى يشترك فيها سرجيوس كانت لها دوافعها الكامنة فى العقل الجمعى المصرى، ومن ناحية أخرى.. فإن رابطة الجامعة الوطنية التى تميزت بها ثورة ١٩١٩ قد أدت دورها فى فاعلية الإسهام القبطى فى الثورة.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى تتبع الدور الذى لعبه سرجيوس فى الثورة، فسيسترعى انتباهنا ما قام به سرجيوس فى المسيرة الوطنية التى توجهت إلى الأزهر الشريف، حيث اعتلى سرجيوس منبر الأزهر خطيبًا وداعيًا إلى الثورة، فكان ذلك ظاهرة جديرة بالبقاء فى ذاكرة الأمة حتى الآن(٢).

---

(١) المنارة ١٤/٩/١٩٤٩.

(٢) أنشد البعض تخليدًا لذلك:

فى الأزهر ارتفع الصليب مع الهلال … بفضل دعوة سرجيوس
تحيا البلاد وشعبها ومليكها … تحيا المشايخ والقسوس
(المنارة ٣٠/١١/١٩٤٩)

واستمر سرجيوس على ذلك وخَطَبَ فى عديد من الجوامع والكنائس، كما ترأس سرجيوس المظاهرات، لاسيما فى الميادين العامة، مثل ميدان الأوبرا، الذى كانت تتجمع فيه العديد من المظاهرات، وفى الحقيقة لم يكن سرجيوس هو الكاهن القبطى الوحيد الذى تزعم المظاهرات وخطب فى الجماهير فى الكنائس والمساجد، إذ انضم إلى الثورة بعض رجال الدين الآخرين، لعل أشهرهم القمص بولس غبريال (١).

### الأسلوب الخطابى عند سرجيوس

تميز سرجيوس فى خطابته للجماهير بأسلوب سلس ولاذع وساخر ومثير للجماهير فى نفس الوقت، وربما ساعده على ذلك قربه الدائم من الناس عن طريق الوعظ والإرشاد، لاسيما للفئات المتوسطة والفقيرة، وفى رأينا أن من الضرورى التعرض لأسلوب الخطابة عند سرجيوس، لأنه فى الحقيقة أحد أهم أسرار تحليل ظاهرة «سرجيوس» فى الحركة الوطنية.

وهناك عديد من الأمثلة عن الخطابات المثيرة التى كان يلقيها سرجيوس على الجماهير، فمن على منبر الأزهر وجه سرجيوس خطابًا ساخراً إلى الجماهير، محرضًا على الثورة قائلا: «كنتُ أسير يومًا فى شارع كلوت بك، فوجدت أطفالا يلعبون أمام منزلهم، فتحدثتُ معهم حديثًا، قالوا لى بعده: (إن أمنا فى المنزل، وهناك بعض الجنود يعتدون عليها)؛ فعجبتُ لأمرهم وسألتهم: كيف ذلك؟

قالوا: ماذا نفعل؟، فصعدتُ إلى المنزل، فوجدت امرأة يعتدى عليها الجنود الإنجليز. أتدرون من هم هؤلاء الأطفال؟ ومن هى هذه الأم؟ فقال الجمهور: لا، فأجاب سرجيوس: (هم فئة الموظفين، والأم هى مصر). عندئذ ثار الموظفون أمام سرجيوس، فقال لهم: «أظهروا شعوركم حيالَ أُمكم مصر».

---

(١) القمص بولس غبريال - ولد فى القاهرة فى أكتوبر ١٨٧٨ وكان أبوه كاهنًا، وتخرج من المدرسة الأكليركية - مثل سرجيوس - ولعب دوراً مهمًا فى التعليم القبطى، كان كاهنًا للكنيسة العذراء بحارة الروم فى القاهرة، وشارك بالخطابة فى أثناء ثورة ١٩١٩ فى عديد من المساجد والكنائس محرضًا على الثورة، شارك بعد ذلك فى الهيئة الوفدية والرابطة الشرقية، والمحافل الماسونية، غير أن ديناميه سرجيوس وملكاته الخاصة قد خطفت منه الأضواء.
انظر: إيريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة القبطية، الكتاب الخامس، القاهرة، ص ١٠٤.